

في الاجتماع اللغوي

صراع اللغات

للدكتور علي عبد الواحد وافي

مدرس العلوم الاجتماعية بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

—•••—

يحدث بين اللغات ما يحدث بين أفراد الكائنات الحية وجماعاتها من احتكاك وصراع وتنازع على البقاء وسعي وراء الغلب والسيطرة . وتختلف نتائج هذا الصراع باختلاف الأحوال : فتارة ترجح كفة أحد المتنازعين ، فيسارع إلى القضاء على الآخر مستخدماً في ذلك وسائل القسوة والعنف ، ويتمتع فلوله فلا يكاد يبقى على أثر من آثاره ؛ وتارة ترجح كفة أحدهما كذلك ، ولكنه يمهل الآخر ، وينقص بالتدريج من قوته ونفوذه ، ويعمل على خضد شوكته شيئاً فشيئاً حتى يتم له النصر ؛ وأحياناً تتكافأ قواهما أو تكاد ، فتظل الحرب بينهما سجالاتاً ، ويظل كل منهما في أثنائها محتفظاً بشخصيته ومميزاته .

وينشأ هذا الصراع عن عوامل كثيرة أهمها عاملان : أحدهما أن ينزح إلى البلد عناصر أجنبية تنطق بلغة غير لغة أهل ؛ والثاني أن يتجاور شعبان مختلفي اللغة ، فيتبادلا المنافع ، ويتاح لأفرادهما فرص للاحتكاك المادي والثقافي .

وكلا العاملين ينتهي أحياناً إلى تغلب إحدى اللغتين على الأخرى ، وأحياناً إلى بقائهما معاً جنباً لجنب .

وسنقتصر في هذا المقال على بيان الحالات التي يؤدي فيها العامل الأول إلى تغلب إحدى اللغتين على الأخرى ، وما يمتاز به هذا التغلب من خصائص ، وما يتصل به من شئون ، مرجئين تكملة البحث إلى مقالات تالية .

قد يحدث على أثر فتح أو استثمار أو حرب أو هجرة ... أن ينزح إلى البلد عنصر أجنبي ينطق بلغة غير لغة أهل ، فيشتبك اللغتان في صراع ينتهي أحياناً إلى تغلب إحداها ، فتصبح لغة جميع السكان قديمهم وحديثهم ، أصيلهم ودخيلهم . ويحدث هذا في حالتين :

الحالة الأولى : أن يكون كلا للشعبيين همجياً قليل الحضارة

منحط الثقافة ، وزيد عدد أفراد أحدها على عدد أفراد الآخر زيادة كبيرة . ففي هذه الحالة ، تغلب لغة أكثرهما عدداً سواء أكانت لغة الغالب أم المغلوب ، لغة الأسيل أم الدخيل ؛ على شريطة أن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ . فمن ذلك أن الإنجليز السكسونيين ، حينما نزحوا من أواسط أوروبا إلى إنجلترا ، لم تلبث لغتهم أن تغلبت على اللغات السلتية^(١) التي كان يتكلم بها السكان الأصليون . وذلك لأن عدد من بقي من السلتيين بهذه الأقاليم لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد المنعبرين ؛ وكلا الشعبين كان همجياً منحطاً في مستوى حضارته ومبلغ ثقافته ؛ وكلتا اللغتين تنتمي إلى فصيلة اللغات الهندية - الأوروبية - والنورمانديون Normands ، حينما أغاروا على إنجلترا في منتصف القرن التاسع الميلادي واحتلوا معظم أقاليمها ، لم تلبث لغة الشعب المقهور أن تغلبت على لغتهم ، فأصبح جميع السكان ، أصيلهم ودخيلهم ، إنجليزهم ونورمانديهم ، يتكلمون الإنجليزية السكسونية . وذلك لأن الإنجليز المغلوبين كانوا أكثر عدداً من النورمانديين الغالبين ؛ ولم يكن لأحد الشعبين إذ ذاك حضارة ولا ثقافة راقية ؛ وكلتا اللغتين من الفصيلة الهندية - الأوروبية^(٢)

وقد يحدث أحياناً في هذه الحالة أن تغلب لغة على أخرى من غير فصيلتها . ولكن هذه الظاهرة نادرة الحدوث ، ولا يتم التغلب فيها إلا بصعوبة وبمدأمد طويل . واللغة التي تنشأ من هذا التغلب ينالها كثير من التحريف في ألفة المتحدثين من المناطقين بها لشدة الاختلاف بينها وبين لغتهم الأصلية ، فتبعد بعداً كبيراً عن صورتها الأولى . فالبلغارون وهم من أصل « فينواي Finois » حينما نزحوا إلى البلقان وامتزجوا بشعوب الصقالية (السلافية Slaves) ، أخذت لغتهم تهزيم شيئاً فشيئاً أمام لغة هذه الشعوب حتى انقرضت وحل محلها لسان مغربي . وذلك لأن عدد البلغارين لم يكن شيئاً مذكوراً بجانب عدد الصقالية الممتزجين بهم ؛ وكلتا اللغتين كانت إذ ذاك همجية منحطة في مستوى حضارتها ومبلغ

(١) لغة شعوب السلت Celtes وهي شعوب كانت تظن قديماً أوروبا الوسطى ، ثم انتشرت عشائر منها في بلاد الجول Gaule (فرنسا الآن) وإسبانيا وبريطانيا

(٢) هي فصيلة أفوية تشمل ثمان طوائف من اللغات : الهندية - الإيرانية والأرمنية واللغات الأفرقية ؛ والألبانية ؛ واللغات الإيطالية التي تشمل اللاتينية ؛ واللغات السلتية ؛ واللغات الجرمانية ؛ واللغات البلطيقية - الصقلية

إلا بعد أمد طويل يصل أحياناً إلى أربعة قرون ، وقد يمتد إلى أكثر من ذلك . فالرومان قد أخضعوا بلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) في القرن الأول ؛ ولكن لم يتم النصر لغتهم اللاتينية على اللغة السلتية التي كان يتكلم بها أهل هذه البلاد إلا حوالي القرن الرابع الميلادي . ومع ما كان للعرب من قوة الشوكة ، ورفى اللغة ، واتساع الحضارة ، وحماية الدين ، وسطوة الغالب ، لم يتم النصر لغتهم على القبطية والبربرية إلا بعد أمد طويل . على أن اللغة القبطية لا تزال مستخدمة في كثير من الطقوس الدينية الأرثوذكسية ؛ واللغات البربرية لا تزال إلى الوقت الحاضر لغة محادثة لدى بعض العشائر المغربية وغنى عن البيان أن انتصاراً لا يتم إلا بعد أمد طويل وجهاد عنيف لا يخرج المنتصر من معاركه على نفس الحالة التي كان عليها من قبل . فاللغة التي يتم لها الغلب لا تخرج سليمة من هذا الصراع . بل إن طول احتكاكها باللغة الأخرى يجعلها تتأثر بها في كثير من مظاهرها وبخاصة في مفرداتها

ويختلف مبلغ هذا التأثير باختلاف الأحوال : فنكثر مظاهره كلما طال أمد احتكاك اللتين وكان النزاع بينهما عنيفاً والمقاومة قوية من جانب اللغة المهزومة ؛ ونقل مظاهره كلما قصرت مدة الصراع أو خفت وطأة النزاع أو كانت المقاومة ضعيفة من جانب اللغة المغلوبة . فطول الأمد الذي استغرقه الكفاح بين لغة الإنجليز للسكسونيين بالجزيرة ، ولغة الفانجيين من الفرنسيين النورمانديين (الذين أغاروا على بلاد الإنجليز في القرن التاسع الميلادي واحتلوا معظم مناطق إنجلترا كما سبقت الإشارة إلى ذلك) ولشدة المقاومة التي أبدتها اللغة النورماندية المهزومة ، خرجت اللغة المنتصرة (الإنجليزية) من هذا الصراع ، وقد فقدت أكثر من نصف مفرداتها الأصلية واستبدلت به كلمات من اللغة النورماندية المغلوبة ، واقتبست منها فضلاً عن هذا مفردات أخرى جديدة . على حين أن لغة بلاد الجول La Gaule التي انتصرت عليها اللغة اللاتينية لم تترك في اللغة الغالبة أكثر من عشرين كلمة^(١) ؛ واللغات القبطية والبربرية المغلوبة لم تذكر تترك أي أثر في اللغة العربية الغالبة . وذلك لأن الصراع في هذين المثلين ، على طول أمد ، لم يكن عنيفاً ، ولم تلق في أثناءه اللغتان اللاتينية (اللاتينية في المثال الأول والعربية في المثال الثاني)

(١) على أن بعض هذه الكلمات كان قد انتقل إلى اللاتينية قبل غزو الرومان لبلاد الجول

ثقافتها . وقد حدث هذا التغلب مع اختلاف اللغتين في الفصيلة ؛ فلفظة البلغاريين الأصلية كانت من الفصيلة الفينية^(٢) ، على حين أن اللغات الصقلية من الفصيلة الهندية - الأوروبية ، ولكن هذا التغلب لم يتم إلا بصعوبة ، وبعد أمد طويل ، وصراع عنيف خرجت منه اللغة الغالبة مشوهة محرفة عن مواضعها في ألسنة المحذنين الناطقين بها ، فبعدت بعداً كبيراً عن صورتها القديمة . فالبلغارية الحديثة هي أكثر اللغات الصقلية تحريفاً وبعداً عن أصولها الأولى

(الحالة الثانية) : أن يكون الشعب الغالب أرق من الشعب المغلوب في حضارته وثقافته وآداب لغته ، وأشد منه بأساً وأوسع نفوذاً . ففي هذه الحالة يكتب النصر للغته فتصبح لغة جميع السكان ، وإن قل عدد أفرادها عن أفراد الشعب المغلوب ؛ على شريطة أن تدوم غلبته وقوته مدة كافية ، وأن تقيم بصفة دائمة جالية يعتد بها من أفرادها في بلاد الشعب المغلوب ، وأن تمتزج بأفراد هذا الشعب ، وأن تكون اللغتان من شعبة لغوية واحدة أو من شعبتين متقاربتين

والأمثلة على ذلك كثيرة في التاريخ . فقد نجح عن فتوح الرومان في وسط أوروبا وشرقها أن تغلب لغتهم لللاتينية على اللغات الأصلية لإيطاليا وإسبانيا وبلاد الجول La Gaule (فرنسا وما إليها) والألب الوسطى Alpe Centrale والإليريا Illyrie ، مع أن الرومان الفيرين كانوا في هذه البلاد أقلية بالنسبة لسكانها الأصليين . وقد نجح عن فتوح للعرب في آسيا وأفريقيا أن تغلب لغتهم على كثير من اللغات السامية الأخرى وعلى اللغات القبطية والبربرية والكوشيتية^(٣) ؛ فأصبحت اللغة العربية لغة الحديث والكتابة في معظم مناطق شبه الجزيرة العربية وفي مصر وشمال أفريقيا وفي جزء كبير من قسمها الشرقي المتاخم لبلاد الحبشة ؛ مع أن الجالية العربية في هذه البلاد كان عددها أقل كثيراً من عدد السكان الأصليين

وفي كلتا الحالتين السابقتين لا يتم النصر غالباً لإحدى اللغتين

(١) هي فصيلة لغوية تشمل الفنلندية والأستونية والبلغارية القديمة
(٢) اللغات السامية هي فصيلة لغوية يندرج تحتها : اللغات الأكادية (الآشورية - البابلية) ، والآرامية (وتشمل الكلدانية والسريانية) ، والكنعانية (ويدخل فيها الفينيقية والعبرية) ، والعربية ، والحميرية ، والحيشية - أو لغات البربرية وهي لغات السكان الأصليين لسهل أفريقيا - ولغات الكوشيتية هي لغات القسم الشرقي من أفريقيا المحصورين بين درجة العرض الرابعة جنوب خط الاستواء وحدود مصر ما هذا المناطق الحبشية وبعض مناطق السودان

ظاهرة عامة تتحقق في جميع الحالات التي يحدث فيها انتقال مفرد من لغة إلى أخرى .

وتقطع اللغة المغلوبة في سبيل انقراضها مراحل كثيرة تتنازل كل مرحلة منها بمظهر خاص من مظاهر الانحلال وضعف المقاومة في المرحلة الأولى تغذفها اللغة الغالبة بطائفة كبيرة من مفرداتها فتوهن بذلك متنها الأصلي وتجرده من كثير من مقوماته ولكن اللغة المغلوبة ، تظل طوال هذه المرحلة محتفظة بقواعدها ومخارج حروفها وأساليبها في تطبيق الكلمات : فيؤاخذ أهلها عباراتهم ويصرفون مفرداتهم وفقاً لقواعدهم التنظيمية والمورفولوجية : « السنتكس والمورفولوجيا ، أو النحو والصرف » . وينطقون بألفاظهم الأصلية وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة طبقاً لأساليبهم الصوتي ومخارج حروفهم ؛ حتى أنهم يستبدلون في الكلمات الدخيلة بالحروف التي لا يوجد لها نظير لديهم حروفاً قريبة منها من حروف لغتهم . . . وفي المرحلة التالية تنسرب إلى اللغة المغلوبة أصوات اللغة الغالبة ومخارج حروفها وأساليبها في نطق الكلمات . فينتطق أهل اللغة المغلوبة بألفاظهم الأصلية ، وما انتقل إليهم من ألفاظ دخيلة من نفس المخارج . . . وبنفس الطريقة التي يسير عليها للنطق في اللغة الغالبة . فيزداد بذلك انحلال اللغة المغلوبة ويؤذن نجحها بالأقول . ولكنها تظل طوال هذه المرحلة مستبصلة في الدفاع عن قواعدها الصرفية والتنظيمية (قواعد المورفولوجيا والسنكس) وفي مقاومة قواعد اللغة الغالبة . فيركب أهلها جملهم ويصرفون كلماتهم وفق أساليبهم الأولى . وفي المرحلة الأخيرة تضعف هذه المقاومة شيئاً فشيئاً ، فتأخذ قواعد اللغة الغالبة في الاستيلاء على الألسنة حتى يتم لها الظفر ، فيتم بذلك الإجهاز على اللغة المغلوبة . فالقواعد في اللغة المغلوبة أشبه شيء بالقلمة التي يحتمي بها فلول الجيش النهم وتقاتل عنها حتى آخر رمق ، والتي يتم بسقوطها استيلاء العدو على البلاد .

علي هيد الراهر وافي

ليسانيه ودكتور في الآداب من جامعة باريس



مقاومة شديدة من جانب اللغات المقهورة (لغة الجول السلنية في المثال الأول ، والقبطية والبربرية في المثال الثاني)

وتختلف كذلك النواحي التي يبدو فيها تأثير اللغة الغالبة باللغة المغلوبة تبعاً لاختلاف الأحوال التي تكون عليها كلتا اللغتين في أثناء اشتباكهما . ويبدو هذا التأثير بأوضح صورة في النواحي التي تكون فيها اللغة المغلوبة متفوقة على اللغة للغالبة . ولذلك تألف معظم المفردات التي أخذتها الإنجليزية الغالبة عن الفرنسية النورماندية المغلوبة ، من كلمات دالة على معان كالية وألفاظ تنصل بشئون المائدة والطهي والطعام . وذلك لأن النورماندية كانت غنية في هاتين الطائفتين من المفردات ؛ على حين أن الإنجليزية كانت فقيرة فيهما كل الفقر ؛ فعمدت إلى خصيمهما المقهور واستلبته ما كان يميزها قبل أن تجهز عليه . وإلى اقتباسها منه الألفاظ المتصلة بشئون المائدة والطهي وألوان الطعام يرجع السبب في أسلوبها الغريب في تسمية الحيوانات المأكولة اللحم . فكثير من هذه الحيوانات يطلق على كل منها في الإنجليزية اسم جرمانى الأصل يطلق على الحيوان ما دام حياً : Cheep, Galf, Ox, Pig, وامم آخر فرنسي الأصل يطلق عليه بعد ذبحه وإعداده للطعام : Mutton, Veal, Beef, Pork.

والألفاظ الأصلية للغة الغالبة ينالها كثير من التحريف في ألسنة المتحدثين من الناطقين بها (المغلوبين لغوياً) ، فتبمد بذلك في أصواتها ودلالاتها وأساليب نطقها عن صورتها الأولى ويبلغ بمدى هذا أقصى درجاته إذا كانت اللغة المقهورة من فصيلة أخرى غير فصيلة اللغة الغالبة كما سبقت الإشارة إلى ذلك بصدد البلغارية القديمة والصقلبية

والألفاظ الدخيلة التي تقتبسها اللغة الغالبة من اللغة المغلوبة ينالها كذلك كثير من التحريف في أصواتها ودلالاتها وطريقة نطقها ، فتبمد في جميع هذه النواحي عن صورتها القديمة ، ويظهر هذا بالموازنة بين الكلمات الإنجليزية الآتية والكلمات الفرنسية التي اقتبست منها : Mutton (Mouton), Veal (Veau), Beef (Boeuf). فإن كل كلمة منها تختلف عن أصلها اختلافاً غير يسير في صوتها ودلالاتها وطريقة النطق بها . حتى أن الفرنسي الذي لا يعرف الإنجليزية لا يكاد يقبلها أو يدرك مدلولها إذا سمعها من إنجليزي — وليست هذه الظاهرة مقصورة على الاقتباس الناشئ من الصراع بين لغتين ، كتب لإحداها النصر ، بل هي